الفصل السابع

obeikandl.com

obeikandl.com

قدرة الله والمشيئة

إرادة ربنا في كتابه نوعان:

أ ـ إرادة كونية قدرية خلقية عامة شاملة لجميع الموجودات ﴿يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [النور: ٤٥] إذ يخلق ربنا من مقدور السماوات والأرض والجبال والبحار والأشجار، والملائكة والجان والحشرات والهوام، ما لم يستطع الإنسان معرفة حكمته؛ لأنه قاصر في علمه وكذلك الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

ب ـ إرادة دينية آخرية شرعية متضمنة لما يحبه الله تعالى من عباده ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]، وهي التي طلبها وبينها ربنا على ألسنة رسله في أوامره ونواهيه، فالله أمر الخلق عن طريق الرسل بما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم.

فالله تعالى خالق الأعيان: كالشمس والقمر والنجوم والإنسان والبحار والجبال والحيوان والهوام و... وخالق الأفعال ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

فالعباد فاعلون حقيقة، والله تعالى خالق أفعالهم (الخير والشر) وللعبد قدرة على أفعاله وله إرادة، والله خالق أفعالهم (قدراتهم وإراداتهم) فلا يتعدَّ أحد مشيئة الله ولا قضاءه.

والإرادة الإلهية الكونية التي تستلزم وقوع مراد الله (ما شاء الله كان) وما هو واقع شاءه الله تعالى وهذه هي المنفذة.

والإرادة الشرعية: محبة الله تعالى لأهل طاعته وشكره للمؤمنين به،

وهذه قد تقع وقد لا تقع ، إذ سمح ربنا من خلالها بإرادة حرة للإنسان ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠].

- ومشيئة العبد التي منحها الله له ليكرمه ويقيم عليه الحجة ويحاسبه عليها ليست نافذة إلا إذا سمح الله أو أذن بها ﴿إِلَّا مِنۢ بَعۡدِ أَن يَأۡذَنَ ٱللَّهُ لِمَن يَشَآءُ وَيَرۡضَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٦].

فمن شاء ذكره: هذا الذكر توفيق من الله تعالى ييسره لمن يعلم منه أنه أهل له وقادر على حفظه ، فلا يصادم العبد بمشيئته مشيئة الله تعالى ولا تحرك لها إلا بإرادته تعالى المهيمنة والنافذة ، هو أهل التقوى وأهل المغفرة ، فالعبد مطالب بالتقوى ويتفضل الله عليه بالمغفرة ، فالله تعالى يشاء لعبده ما يناسب صدقه (بالنية ووجهته بالطاعة) ، وقلب العبد بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء.

فهناك نسب دقيقة بين طلاقة المشيئة وسلطانها الفاعل وبين اختيار العبد واتجاه الإرادة. كل ذلك لا يمكن استيعابه في حدود المنطق الذهني وشكل القضية المطروحة واستخدام العبارة (التعابير) البشرية.

فلكل حقيقة يحدد لها طريقة لتناولها وأسلوب للتعبير عنها ، فلا غرو أن يندفع كثير من الجهلة للقول بأن إرادة الله تعالى تدفع إنساناً للهدى وآخر للضياع (الجبر) وهذا يتنافى مع كمال الله ومع أسمائه الحسنى الذي كرم عباده بأنواع التكريم.

أما مصائر الناس فهي أحداث ينشئها قدر الله وتتحقق بها إرادته ومشيئته ﴿إِنَّا كُلَّ شَيۡءٍ خَلَقۡنَٰهُ بِقَدَرٖ﴾ [القمر: ٤٩] ، فلا آلية ولا حتمية للحوادث بالكون ، بل إن كل ما يصنعه الحدث تجاه الناس هو أن تجري مشيئة الله وإرادته بهم من خلال هذا الاتجاه.

وعليه فالإنسان هو المخلوق الذي تجري مشيئة الله تعالى من خلاله ومن خلال تحركاته.

فالله يضل الظالمين بشركهم وظلمهم وفق سنته التي توصل من يتعامى

عن الهدى والنور إلى التيه والتشرد ، فمن اتخذ إبليس وجنوده الشياطين أولياء يمثل الرغبة في دواعي المعصية والتولي عن دواعي الطاعة ﴿إِنَّهُمُ ٱتَّخَذُواْ ٱلشَّيَٰطِينَ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ٣٠] ، ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾ [الحج: ٤].

والله تعالى وإن سمح بخروج المعاصي قَدَراً فهو لا يحبها ولا يرضاها لعباده ، ولكنها لازمة لهم؛ لأن وراءها قصاصاً وغاية (تربوية وتأديبية وجزائية..).

والإنسان الذي لا يعلم عن مشيئة الله المغيبة عنه إلا معرفته أنها موصوفة بالرحمة والعلم والحكمة ، ويعلم أن ما يطلبه الله منه أوصله له على ألسنة الرسل.

فواجب الإنسان إذاً:

أ ـ بذل الجهد والوسع لأداء ما كلف به وترك البحث عما لا يستطيع كشفه (العلم المفقود) وما لا جدوى من كشفه ، وكان في خطبة الرسول ﷺ بعد منصرفه من أُحُدٍ: أيها الناس أقبلوا على ما كلفتم من أمر دينكم وأعرضوا عما ضمن لكم من أمر دنياكم.

ب ـ حسن الظن بالله والرضا بقضائه (عبادة) وإن جريان المكروه على الإنسان لا يعدو كونه عقوبة على ذنب أو سبباً لنعمة لا تُنال إلا بمكروه ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ [لقمان: ٢٠].

فإذا وصلت بصيرة العبد لليقين بحكمة الله تعالى وعدله فهو مؤمن موحّد وانسدَّت أمامه خصومة الخلق إلا ما كان حقاً لله ولرسوله ﷺ، فلم يعد ثمة مخاصمة ولا غيرها إلا فيما يتعلق بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، واسمع لقول الرسول الكريم ﷺ: «إن من ضعف اليقين أن ترضي الناس بسخط الله وأن تحمدهم على ما رزقك الله وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله ، فإن رزق الله لا يجره إليك حرص حريص ولا يرده كراهة

كاره ، وإن الله بحكمته جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الهمَّ في الشك والسخط».

ولتبسيط الأمر: نذكر أن مراد الله نوعان:

أ ـ مراد لذاته محبوب؛ لما فيه خير وفائدة للعباد ، ويسمى: مراد الغايات والمقاصد ، كمراده تعالى هداية الخلق وإيمانهم ودخولهم في العبودية عبودية الطاعة والمحبة لا عبودية القهر.

ب ـ مراد لغيره ليس مقصوداً لذاته ولكنه وسيلة للمقصود فهو من حيث أنه مراد مكروه لذاته ، ولكنه من حيث إفضائه إلى المراد الأول فهو محبوب ، فيجتمع فيه الأمران: (البغض والإرادة) ، كالدواء المر فهو مكروه لمراره لكنه مراد للشفاء.

كذلك خلق إبليس وتسليطه على بعض الأمور فهو مبغوض لذاته لكنه سبب لمَحَابٍّ كثيرة منها: حصول عبوديات غالية القيمة عند الله كجهاد الكفار في سبيل الله ، وكذلك إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم إظهار قدرة الله في خلق المضادات والمتقابلات (كالليل والنهار ، والحياة والموت ، . .إلخ) ، كذلك هو سبب لإظهار أسماء الله القهرية للعباد (القهار ، الجبار ، المنتقم ، الخافض ، المذل ، . .إلخ) ، ثم إظهار أسماء الله المتضمنة للحكمة (كالعَفُوِّ ،الغفور ، السِّتِّير ، . .إلخ). ثم إظهار أسماء الله تعالى المتضمنة (الحكمة ، وضع الأشياء في موضعها).

جاء في الحديث: «لو لم تذنبوا فتتوبوا لذهب الله بكم وأتى بقوم يذنبون فيتوبون فيتوب الله عليهم فيغفر الله لهم». تطولهم رحمته ومغفرته وتوبته.

فلتربية النفس الإنسانية وتأهيلها للقيام بالخلافة وإعمار الأرض ومعالجتها لتدَعَ خبثها وما تلوثت به ، وتأهيلها لتصبح في جوار ربها في مقعد صدق عند مليك مقتدر في جنات النعيم ، لا بد لها أن تمر في

مراحل من المعالجة في روائز العلم والعدل الإلهي من قبل العليم الخبير بالنفس الإنسانية ، القادر بما يعرف حاجتها في كل لحظة من أنواع الشدة أو الرخاء أو الشدائد أو الحوادث والمعالجات ، فهو يعالج كل نفس على حدة وكأنها لوحدها في هذا الكون ويعالجها من خلال مجتمعها الذي فيه يعالج مجموعات وأفراداً متأثراً بالفرد ومؤثراً به؛ لتصل إلى النتيجة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧] ، فالراشدون هم الذين استفادوا من المعالجات حتى حبب إليهم الإيمان وكرهوا الفسوق والعصيان ، وغير الراشدين لم يستفيدوا من هذه الفرص.

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ﴾ [الحج: ٥٤]. ﴿وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [آل عمران: ١٩] بالهداية والضلال ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ﴾ [البقرة: ٢١٣] ، فالذين آمنوا اهتدوا إلى الحق بإذن الله تعالى ، والذين كفروا والظالمة نفوسهم لم يهتدوا إلى الحق.

﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ﴾ [هود: ١١٨] مجبورين مقهورين ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ﴾ [هود: ١١٨] بحسب حرية الاختيار وحسب أقدارهم ﴿إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ﴾ [هود: ١١٩] الذين اختاروا الهداية ، ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٩]؛ ليختاروا الهداية برحمته.

* * *

قدرات العبد والإرادة

ـ فالمخلوقات تقسم بحسب الإرادة إلى:

أ ـ ما هو مسلوب الإرادة مسخر بطبعه لما كلف به، كالحشرات والهوام والوحوش وغيرها، إذ إن لكل منهم هدياً لما هو مناط ومكلف به.

ب ـ قسم من المخلوقات تتحرك بإرادة مستقلة لها نابعة من شعورها وعلمها بما ينفعها وما يضرها، وهي أنواع:

ـ من لا يريد إلا الخير ولا يتأتى منه إرادة سوء، كالملائكة ﴿لَّا يَعْصُونَ ٱللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ﴾ [التحريم: ٦].

ـ من لا يريد إلا الشر ولا يتأتى منه إرادة خير، كالشياطين الذين أخذوا على أنفسهم إضلال الخلق وغوايتهم.

ـ من له إرادة خير وشر ويتأتى منه الخير والشر، كالإنسان وقسم من الجان، وهو أنواع:

ـ من تغلَّب عنده الإيمان والعقل والمعرفة فحكم سلوكه بهم وتغلب على دوافع الشهوة والغرائز، فهذا يلحق بالملائكة (أهل الصلاح عباد الله الصالحين).

ـ من تغلَّبتْ عليه شهوته وغرائزه البهيمية، وإيمانه ضعيف، دون إعطاء دور للعقل والفطرة، فهذا من يلحق بالبهائم ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ [الفرقان: ٤٤].

ـ من تغلَّبتْ شهوته وغرائزه على عقله وفطرته، وليس لديه إيمان،

فيلحق بالشياطين ﴿شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: ١١٢].

ـ **خلق الله الناس مختلفين:**

في قدراتهم ومعالجتهم ويصبحون باختيارهم مختلفين في مصائرهم: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

ـ **الاستطاعة**: القدرة، الوسع.

إن للعبد قدرة مصححة هي الأداة أو الوسيلة التي يستخدمها ويحركها في التعامل مع الأوامر الإلهية والنواهي، وهي متوفرة قبل الفعل وبعده، وهي غير موجبة للفعل، كالصحة والأعضاء والحواس والتمكن وسلامة الأعضاء (الآلات) وهي سبب التكليف، فلا يكلف بالفعل من لا تتوفر هذه عنده ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾ [النور: ٦١]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ [الطلاق: ٧].

فلا يُلام على عدم القيام بالفعل المأمور من لم تتوفر له سلامة الآلات أو القدرات المصححة، بل يُلامُ على ذلك من كان له سلامة الآلات واشتغل بغير المأمور به أو لم يشتغل بالمأمور، والله تعالى لا يتوعد بالعقاب إلا للمستطيع الذي لديه القدرات ولم يعمل.

ـ كما أن للعبد قدرة موجبة تكون حين الفعل لتنفيذ هذا الفعل ومقرونة بالفعل ومن مستلزماته لا تتخلف عنه وليست شرطاً في التكليف لا تتوقف عليه الإرادة أو المشيئة أو العزيمة.

وهذه هدية من الخالق كرَّم بها الإنسان فأعطاه المشيئة ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨]، فهي ليست مطلقة ولكنها تأتي من خلال مشيئة الخالق، إذ لو كانت مطلقة؛ لكان العبد شريكاً للخالق، ولو كان العبد دون مشيئة؛ لكان الأمر جبراً ولما كان للإنسان دور في إقامة الخلافة في

الأرض ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]. فالله تعالى لا يمنع الثواب عن العبد إلا إذا امتنع عن الاستجابة.

ـ **اتخاذ الأسباب**: ما شاء الله كان.

الأسباب في الإسلام:

من حيث إثباتها أسباباً، ورفع سبب سببيتها عنها ودفعها بأمور أخرى نظيرها أو أقوى منها مع بقاء مقتضى السببية فيها.

ـ إذا شاء الله كما تُصرف كثير من الأسباب الخاصة بالشر: بالدعاء أو الصدقة أو الذكر، والتوكل والاستغفار والعتق وصلة الأرحام وغيرها، كما وتُصرف كثير من أسباب الخير بعد انعقادها بضد ذلك (المعاصي والذنوب..).

فكم من أمر انعقد سببه ثم صُرِف عن العبد بأسباب أحدثها منعت حصوله وهو يشاهد السبب حتى كأنه أخذه باليد. وكم من شر انعقد سببه ثم صُرِف عن العبد بأسباب أحدثها منعت حصوله.

ـ إن اتخاذ الأسباب أمر تعبدي ﴿ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا﴾ [الكهف: ٨٩] فهو دليل الطلب، فالأخذ بالأسباب يؤكد الطلب الذي هو مبرر الأجر والجزاء، وهذا مربوط أيضاً بالصدق في التوجه بالطاعة والعبادة، فالباري يحاسب على النية والسعي (الطلب)؛ لأن العمل قد يسمح به الله وقد لا يسمح؛ لأنه حقيقة من خلق الله تعالى. فالأجر حسب النية والسعي في الطلب ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ [النجم: ٣٩]، «إنما الأعمال بالنيات».

فإذا كان الطلب للخير والوسائل والأسباب مشروعة (حسب النية) فثمة أجر إن شاء الله تعالى ولا قيمة للنتائج؛ لأنها من مظاهر الدنيا في الفرح أو الحزن إذا تمت، فالأعمال بالنيات التي تسبقها، فقد دعا نبي الله نوح عليه السلام قومه ٩٥٠ عاماً دون كلل بإخلاص الأنبياء وصدق المخلصين (﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَآءِيٓ إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ ٱسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ

جِهَارًا ﴿٨﴾ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا﴾ [نوح: ٥ ـ ٩]) فلا تطابق بين النتائج وبين الجهد والأسباب. وكذلك باقي الأنبياء: يونس، لوط، شعيب، موسى، عيسى.. عليهم السلام.

وذلك لأن الله تعالى كرَّم بني آدم بِـ:

١ ـ بمشيئة هي رشح من المشيئة الإلهية لا تعارضها ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ..﴾ [الإنسان: ٣٠].

٢ ـ بحرية الاختيار، فليس في حياة الإنسان المكرم من الله تعالى جبر أو إكراه ﴿فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ..﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ﴾ [التكوير: ٢٨].

وكذلك أرسل الله الرسل مبشرين ومنذرين ليسوا جبارين يُكْرِهون العباد على الإيمان والطاعة ويَلْوون أعناقهم، بل يدعونهم بالحكمة والموعظة الحسنة، ولقد أثنى الله تعالى على دعوة رسول الله محمد ﷺ بقوله: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، أيّ توجيه.. وأيّ سماحة.. وأيّ عناية..من الله بهذا الإنسان..!

لأن الإنسان تتنازعه أشواق ومطامح ومطامع وآمال بين ما تدعوه إليه فطرته التي أكرمه الله بها والتي أساسها: معرفة الحق والخير ومحبته له والانجذاب إليه، ومعرفة السوء والباطل وكرهه له ونفوره منه، وبين ما يحمل في غرائزه من شهوات تثيرها المؤثرات ويزين له الشيطان اقتناصها دون ضابط بل يؤزُّها الشيطان له أزّاً.

والعقل في ذلك مسخر لأي من الطرفين، ولكن لا يحميه من الانزلاق إلا التمسك في الشرع الذي جاء به الأنبياء ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ قَصْدُ ٱلسَّبِيلِ وَمِنْهَا جَآئِرٌ وَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النحل: ٩].

فما قيمة الإنسان وليس له حرية اختيار..؟

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [القصص: ٦٩]، لا تخفى

عليه خافية؛ لذا يكون علاجه أجدى وأرحم ﴿لَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْأُولَىٰ وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَلَهُ ٱلْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [القصص: ٧٠] ، له الحمد على الإنعام ، وله الحمد على ما يختار لعبده من سلاسل العلاج ، وله الحمد حين عفوه ، وله الحمد على قبول توبة عبده ، وله الحمد على ما أعطى للإنسان ، وعلى ما يعالج به الإنسان ، وله الحمد على ما وصل إليه الإنسان سواء أكان طائعاً (إلى الجنة) بفضل الله ، وإن كان عاصياً (فإلى النار) لأنه استنفذ؛ جميع الفرص الممكنة فهو تعالى أهل الحمد والثناء.

وهذه الحقيقة يصل إليها المؤمن في الدنيا ، ولكن الكافر إذا كشف الغطاء﴿فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] صارت له عين اليقين. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ﴾ [القصص: ٦٨].

ـ إن مشيئة الإنسان رشح من مشيئة الله التي أكرمه بها والتي تظهر في حرية اختياره ، والإنسان بنفسه لا ينشئ مصائره؛ لأن هذه المصائر أحداث لا تكون إلا بقدر الله ﴿إِنَّا كُلَّ شَىْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] ، فالإنسان مخلوق تجري مشيئة الله من خلاله ومن خلال تحركاته.

فمن طلب الخير ورضا الله في عمله جرت المشيئة الإلهية حسب الأقدار وأُثِيْبَ عليها ، ومن كان غير ذلك جرت المشيئة الإلهية (الأقدار كما هي) وسجلت على الإنسان سيئاته ، أو بعفو الله وكرمه لا تكتب عليه.

إن تسخير الريح لسليمان عليه السلام لا تخرج عن كونها مسخرة بإرادة الله (بمشيئة الله) ومن نواميسه تعالى ، فتوافق مشيئته تعالى مشيئة النبي ، ومثاله: ﴿۞ لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ . .﴾ [الأحزاب: ٦٠] أي: ستتجه إرادتنا لتسليطك عليهم ، أي بتوجيه إرادتك ورغبتك إلى قتالهم ، فتتحرك إرادة الله تعالى بوساطته (توافق أمر الله مع عمل النبي) تكريماً للنبي ﷺ ، وإلا فإرادة الله هي الأصل.

ـ ومشيئة ربنا قد تظهر مستترة ـ ونصف ظاهرة ـ وظاهرة: كما في تصرفات الرجل الصالح مع موسى عليه السلام فقال في السفينة: ﴿فَأَرَدتُّ أَنْ

أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ وفي الغلام: ﴿فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا﴾ وفي الجدار: ﴿فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا﴾.

وكذلك إرسال الرياح والشياطين والتسليط: عقاباً للمخالفين.

ـ كلا إنها تذكرة: إثبات للمشيئة الإنسانية في رفض الحق أو قبوله بما لا يتعارض مع مشيئة الله الأصل. هو أهل التقوى (يستحقها): أهلاً لأن يُتقى. وأهل المغفرة: يتفضل بها على عباده.

إذاً: يختار الله تعالى من مشيئة عبده ومن أفعاله ما يشاء وبما يتناسب مع حال الفرد والمجموع والحاضر والمستقبل، كل ذلك بالحكمة والعلم والرحمة لخلقه.

وبالنتيجة: فالإنسان يختار وله إرادة ويتحرك بحرية، والعناية الإلهية تحيطه، فتشاء له من الخير ما لا يظهر له مباشرة، وقد يصل لما يريد وقد لا يصل، وإن الأجر والجزاء مرتبطان بالسعي المبني على اتخاذ الأسباب ﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ﴾ وبنيته التي تسبق تصرفاته، فالعاقل مَنْ تعامل ظاهراً مع الأسباب واستجاب لما اختاره له رب الأسباب فاختار ما فيه صلاح آخرته ورضا ربه؛ لأنه سيكسب الأجر مهما كانت النتائج.

فلا ارتباط بين النية والنتائج، ولكن الارتباط بين النية والتوجه السليم بالأسباب السعي لما يرضي الخالق، والأجر وغير ذلك عبث مؤذٍ غير مُجْدٍ، بل وسيكون سبباً للوقوع في الابتلاءات.

ـ كيف يعالج الله نفوس عباده:

ـ خلق الله تعالى العباد ليرحمهم، فهو يحبهم ابتداء حين خلقهم وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة، وجعلهم مختلفين في إمكاناتهم واستيعابهم، وفي قدراتهم وفي تقبُّلهم للحق، وفي جميع أحوالهم، وجعلهم قابلين للمعالجة برحمته مؤمنهم وكافرهم، وقادرين على الترقي في معرفة ربهم وطاعته إلى ما لا نهاية.. إلى ما يقرب من مرتبة الأنبياء

(مرتبة الصديقين أو الحواريين) ، كل ذلك يعتمد على رغبتهم وإرادتهم الحرة إذا استخدموا الوسائل المسخرة واستفادوا من الحوادث التي تقع لهم إذا تفهموها ومروا عليها معتبرين.

ـ فابتداءً خلق الله عباده على الفطرة كما جاء في الأثر: «خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشياطين» (أي: أبعدتهم عن الفطرة والتي من تعريفها: معرفة الخير ومحبته ومعرفة الشر ومَقْتُه).

ثم بعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فعرض الأنبياء على البشر ما يناسب فطرتهم فمنهم من تجاوب مع الدعوة ومنهم من صدَّ وكفر ﴿فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَا ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢١٣].

فمن قَبِل العرض فقد اهتدى للسير في طريق النجاح ووصل إلى شاطئ السلام ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ﴾ [محمد: ٢] و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١] ، ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ ﴿٣٦﴾ وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٣٦ ـ ٣٧]، فهؤلاء يصدون عن الحق وقد استولى الشيطان على قلوبهم فزَّين لهم سوء أعمالهم وقادهم إلى المهالك فأنكروا الآخرة والحساب وليس ذلك لأنهم غير مقتنعين بوجودها ولكن خوفاً من الحساب والفضيحة والإهانة ، فالتجاهل أولاً ثم الإنكار بأن يكون هناك حساب.

ومن تمام رحمة الله بعباده إرسال الآيات الدالة على صحة ما أرسل به رسله وأنبياءه ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ ۚ وَءَاتَيْنَا ثَمُودَ ٱلنَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُواْ بِهَا ۚ وَمَا نُرْسِلُ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّا تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩] من معجزات ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَٰنًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء: ٦٠] ، للعاصين الصادِّين.

وأما الذين قبلوا الحق ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ

يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢]. فالله تعالى برحمته لا يعجل العقوبة ولكن يستمر في تنبيه المشاعر؛ لتصحو النفس وتعالج الأمور بشكل عقلي ومنطقي ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الرعد: ١٣]، وهو يتتبع الإنسان في جميع أطواره وغايته؛ ليصل به إلى تحقيق العبودية لله عن رضا وعلم، فلا يكون في مسار العبادة إذا سلكه العبد بشكل صحيح نكوس أو تعثر؛ لأنه مبني على محاكمة وأسس عقلية وتطابق مع الفطرة لا على تقليد أعمى واتباع، إذ ما أسهل الانحراف والنكول بالتقليد ولهذا فعناية الله ورحمته تلازمه ليستمر على الصراط، انظر قول الله تعالى: ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَث أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا ۚ فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٧٦﴾ سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٧].

إذاً: المتقون يقادون إلى الجنة بسلاسل الأسباب: (العلم والخوف..)، (دورات الهداية لدارالسلام). والمجرمون يقادون إلى النار بسلاسل الغفلة والأمن والغرور، (مشفى العناية الصحية لصحة النفس). والله لا يغفل عن عباده لحظة، وإنما العباد هم الغافلون. ﴿فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ﴾ [الأنعام: ١٢٥].

إن ما يريح النفس الإنسانية هو تأليه وعبادة رب قائم بالقسط على صراط مستقيم له الأسماء الحسنى.

﴿وَٱللَّهُ يَقْضِى بِٱلْحَقِّ ۖ﴾ [غافر: ٢٠] وهذا الحق عكس الظلم فلا يضع الله الأمور في غير موضعها وإلا كانت ظلماً. فالله يضل الظالمين لأنفسهم عندما أعرضوا عن الحق ﴿بَلِ ٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ فَمَن يَهْدِى مَنْ أَضَلَّ ٱللَّهُ ۖ . .﴾ [الروم: ٢٩] فالإضلال هو الضياع والله يضل الظالمين عن شهواتهم وغيهم.

ففرعون الذي رأى آيتي العصا واليد وغيرهما فلم يتدبرهما ولم يُعِرْهما

أي اهتمام ونعت موسى ـ عليه السلام ـ بالسحر الذي يتطاول به موسى ـعليه السلام ـ على سلطانه. . . هذا لا يستحق من الله إلا الإضلال فجعل الله صدره ضيقاً حرجاً ، فانظر إلى انفعالاته وحنقه عندما يخاطب السحرة الذين وعوا الأمر وتفهموا أنه ليس سحراً فهداهم الله ، فماذا يقول هو وماذا يقولون؟ ضاعت الحجة منه وضاع في متاهات المعجزات.

يقول لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ﴾ [طه: ٧١].

إنه كلام رجل ضجر فاقد الأعصاب أظلمت الدنيا أمامه ضائق صدره كالذي يصَّعَّد في السماء ، ﴿وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِۦ غِشَٰوَةً﴾ [الجاثية: ٢٣].

وماذا قال الذين نظروا إلى الأمور بمنظار العقل والمنطق ورأوا أن الأمر أكبر من كونه سحراً بل ولا يمكن للسحر أن يصل إليه ، ﴿. . فَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سُجَّدًا ﴿٤٦﴾ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٦ـ٤٨] ، ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ ٱلسِّحْرِ ۗ وَٱللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ﴾ [طه: ٧٣] ، ﴿إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٥١] ، ﴿قَالُوا۟ لَن نُّؤْثِرَكَ عَلَىٰ مَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلَّذِى فَطَرَنَا ۖ فَٱقْضِ مَآ أَنتَ قَاضٍ ۖ إِنَّمَا تَقْضِى هَٰذِهِ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَآ﴾ [طه: ٧٢] ، ﴿وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا ۚ رَبَّنَآ أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٦] هداهم ربنا للقول السليم.

وبالنسبة للذين تخلفوا عن رسول الله ﷺ في الجهاد بعد ما ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا (اليقين) أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا.

عند وصولهم لنقطة الإضلال فقد أضلهم الله عن شهواتهم ، وشعروا بمرارة البعد وبانسداد الطريق ، ووحشة الغربة ، عندها الإضلال أعطى ثماره ، فشاء ربنا لهم التوبة ، لأنهم صاروا أهلاً لها ، فمشيئة ربنا بالتوبة لا يقررها إلا بعد العلاج والتأهيل والوصول للمستوى المطلوب ، عندها

تبدأ مشيئتهم بالتوبة ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ . .﴾ [الإنسان: ٣٠].

وهكذا ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ ٱللَّهُ﴾ [النمل: ١٠٤]، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ . .﴾ [محمد: ١]، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ﴾ [محمد: ٦]، ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ١٧].

وبالنتيجة: فالإضلال والهداية من الله تعالى بحق ولا مجال للنقاش في ذلك ولا للمكابرة؛ لأنهما مبنيان على عدل الله وحكمته ورحمته بعباده ولو لم يفهم جانباً منها المغفلون فلا يشوبها ظلم وحقد وتشفٍّ: هي علاج من رب رحيم.

إن تربية النفس الإنسانية وتأهيلها للقيام بأعباء الخلافة في الأرض وإعمار الأرض وإيصالها لتكون أهلاً لمقعد صدقٍ عند مليك مقتدر، هذا التأهيل من رب العالمين عالم النفس وأسرارها وعالم أمراضها وأدوائها وعالم ما يصلح لها وما لا ينفعها، ومن رب صاحب الكمالات خلق الخلق؛ ليربحوا عليه، خلقهم؛ لأنه يحبهم ابتداء، وخلقهم؛ ليسعدهم بقربه وبالتمتع بأسمائه الحسنى.

هذا التأهيل وهذه التربية تكون بسلسلة معالجات من مواقف مختلفة ومن تدابير شتى مقرونة بالعلم والعدل والرحمة الإلهية لا تترك العبد لحظة حتى يستنفد جميع الفرص ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ [الحديد: ٤]، معكم بما أخفيتم وأعلنتم وما عملتم وما وصلتم إليه بعد اجتهادكم كل ذلك ﴿إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُ﴾ [يوسف: ١٠٠] ودون أن يكون للمرء وضع الإلزام (الجبر) بل يكون الإنسان هو المختار، كما في الأثر: «عجب ربكم من أناس يساقون إلى الجنة بالسلاسل» (وبأسلوب). ﴿وَلَـٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ ٱلْإِيمَـٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِى قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ﴾ [الحجرات: ٧]، وهكذا نفهم كلام ربنا ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ﴾ [هود: ١١٨ ـ ١١٩].

فالمقام العالي المعدُّ للإنسان الذي سجدت له الملائكة يجب أن يكون العبد فيه مؤهلاً أولاً، ويجب أن يكون تأهيله بالاختيار لا بالإجبار: ؛ (لأن

الاختيار تكريم للإنسان) وامتنّ الله على الجميع بالمعالجات المختلفة ، يتساوى الجميع في الفرص؛ ليكون العدل الإلهي ظاهراً.

وإذا تحدثنا عن شيء من سلاسل المعالجات فذلك نقطة من بحر ولتقريب الأمر ، وإلا فلا مجال للحديث إلا أن يكشف الله لعبده فيشعر بذلك في الدنيا وإلا ففي الآخرة يكون الكشف لمن لم يستقم ﴿فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ [ق: ٢٢] ، وعندها ﴿وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١]!.

ـ فإذا كانت إرادة العبد (مشيئته) متقاعسة عن الطاعة وغير متجهة لأدائها ، أو كانت مندفعة للقيام بالمعصية ومتجهة لأدائها ، هنا تسمح المشيئة الإلهية لمشيئة العبد بالقيام لما اتجهت له مشيئته من عمل المعصية إلا أنه يقيم أمامه المعوقات ليحبط أهدافه ويضله عما يعتقده سعادة؛ علّه يعيد حساباته ويعيد التفكير بالأمر ﴿وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَ ۚ﴾ [ابراهيم: ٢٧] ، فهذا الإضلال لمن ظلم نفسه ولم يهتم بمستقبله بل هو لاهث وراء حظوظ شهواته الدنيوية.

ومن طرف آخر يعرض عليه منبهات تذكر له طريق الحق وصحته (حتى يسمع كلام الله..) ، وهنا احتمالان:

أ ـ إما العودة إلى طريق العقل والمحاكمة السليمة ﴿وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣] فيوازن بين ما هو صواب وبين ما كان مما أقدم عليه من حظوظ الدنيا والنفس وتتضح له الرؤية فيدخل الإيمان قلبه ويبدأ معه ربنا سلسلة الترقي الإيماني التي لا تتوقف حتى توصله لما هو مؤهل للوصول إليه.

ب ـ وإما استمرار العناد والإصرار والإمعان في التحدي ووضع الصعوبات والمعوقات جانباً وعدم الالتفات بل إعادة الكرّة بأفكار ووسائل جديدة ومشيئة أقوى لما كان ، ككفار قريش الذين أمعنوا في التحدي وأعدوا عدة القتل والأذى وإسكات صوت الحق. فإضلال هؤلاء من ربنا أن يضع أمامهم من المتاعب (الأكبر) كتخلي بعض أصحابهم عنهم وامتناعهم

عن مسايرتهم بل الدخول في صفوف الحق ، ومن جهة أخرى إظهار قوة الحق التي كانت ضعيفة بشكل أقوى بما يوصل المعاند لإعادة حساباته ، كما حصل لعكرمة ، وخالد ، وأبي سفيان. ومن ثم تدخل هذه الفئة التي ثابَتْ للحق في سلسلة المعالجات الخاصة بالترقية (كالجهاد ، أو الدعوة ، أو الإنفاق في سبيل الله..).

أما من أصر على العناد لكنه أظهر القبول ظاهراً وأبطن العداء (الذين دخلوا في طور النفاق) فتتجه المشيئة الإلهية لمعالجتهم؛ ليروا حقيقة الدعوة من الداخل (كابن أبي سلول) الذي استمر في داخله يعمل على إفساد الدعوة ، وفي ظاهره تأييد ، فهؤلاء صار علاجهم من حيث داؤهم ، فداؤهم الكبر ، لأنهم لا يريدون أن يقبلوا وأظهروا القبول لتكون لهم مكانة في قومهم ، فالله تعالى يفضحهم بين أقوامهم وعلى الملأ ويكبت صوتهم ويجعلها حرقة في قلوبهم فيكون هذا حافزاً لهم لإعادة حساباتهم وانحيازهم إلى أحد النقيضين أصحاب اليمين أو أصحاب الشمال.

فالعليم الخبير يعالج كل نفس وحدها ويداويها بما يناسبها وبالكميات والجرعات المناسبة ﴿ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ [الملك: ١٤].

فالتعامل مع كل نفس بما يلائم واقع مجتمعها وبيئتها وطموحها ، وما على الإنسان إلا ملاحظة ما حوله وما يجري معه وألا يكون سلبياً ليستفيد ، وإلا ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ﴾ [الأعراف: ١٧٩].

فمَنْ ملَّكه الله سلامة الآلات والقدرات المصححة ولم يستخدمها لما يصلحه ولمستقبله كان من الذين حقّ عليهم القول ﴿ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ ﴾ [الأنعام: ١٣٠] ، ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهَا إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ ﴾ [السجدة: ٢٢] ، فهم المجرمون الذين ينتقم الله منهم ، والانتقام المقصود هو تنقية النفوس من ظلمها وضلالها فالله ينتقم رحمة للعبد وليس عن حقد ﴿ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ ﴾ [مريم: ٤٥].

وهكذا يخرج الله أضغانهم ليطهرهم ، وقد يكون التطهير بالمصائب ،

ورد في الحديث القدسي «أنا والإنس والجن في نبأ عظيم. أخلق ويعبد غيري وأتودد فيشكر سواي.. خيري للعباد نازل وشرهم إليّ صاعد.. أهل ذكري أهل شكري.. أهل معصيتي لا أقنطهم من رحمتي، إن تابوا فأنا حبيبهم وإن لم يتوبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من الذنوب والمعايب.. إلخ».

وهكذا نتعرف على مشيئة ربنا الخيرة والمعدة لمصلحة عباده جميعاً عاصيهم وطائعهم، وإن معالجة ربنا لعباده يدخل فيها مؤهلاتهم وإمكاناتهم وتطلعاتهم وما يحبون وما يخافون وما يشتهون، ولا يكون علاجاً كاملاً إلا إذا راعى كل هذا وكان من رحيم رؤوف ودود عليم.

وباستعراض بعض الحالات التي وردت في القرآن الكريم كنماذج لهذه المعاملة للنفوس، نرى مكانة النفس الإنسانية من عناية الله وحرصه عليها، فمن ينسب لله الظلم فقد جهل عن الله تعالى الكثير ﴿وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا﴾ [طه: ١١١].

أمثلة من كتاب الله عز وجل: ﴿۞ وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللَّهُ انبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ﴾ [التوبة: ٤٦ ـ ٤٧].

فهؤلاء يظهر أنهم تخلوا عن الجهاد (وهو فرض عين) مع رسول الله ﷺ، وحسب الظاهر أنهم لم يعدوا عُدَّة الخروج للجهاد وتشاغلوا وتقاعسوا؛ لأن فيهم نفاقاً، ولكن الحقيقة أن الله علم منهم أنهم لو خرجوا لكانوا سبب أذية بعض المسلمين الذين يعتبرونهم ذوي مكانة فيسمعون لهم، وبما أنهم سيكونون مُرْجِفِيْنَ في القوم يخذلون المجاهدين فسيكون الوضع العام للمجاهدين غير سليم (بين من يريد الجهاد ومن يفكر بالعودة وبين من يطلب رضا الله ومن يطلب الدنيا والسلامة) فربنا العليم بالنفوس وبمكانة هؤلاء بيَّن بعض المجاهدين، فقد ثبَّطهم الله عن الخروج وكره الله

انبعاثهم ، وإن كان في الظاهر أنهم لم يستعدوا فأظهر الله حقيقة مشيئته لهم بالقعود مع القاعدين.

وهكذا حمى الله المجاهدين من الانقسام ومن المخذِّلين ، فثبّت هؤلاء وحمى الله الفئة التي كان من الممكن أن يغريها قولهم في التخاذل فتدخل في المعصية التي تولّي العدو الأدبار؛ لأنه ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ . . ﴾

[الأنفال: ١٦].

فالمطّلع على أغوار النفس والذي يعلم ما كان وما سيكون وما لو كان كيف يكون جعل ما أقدموا عليه من ذنب بمشيئته يمكن أن يعوض بالتوبة والندم عند عودة المجاهدين مسرورين بما قاموا به من طاعة الله وبما مكّنهم ربنا من أعمال الجهاد ، سيشحذ همة المقصرين ليعاهدوا الله ورسوله ﷺ ويصدقوا في أنفسهم بالاستعداد حالاً للخروج إلى الجهاد مع رسول الله ﷺ إذا دعاهم ، وهذا ما نرى أثره في أن كثيراً ممن تخلّف في معركة بدر أبلى بلاءً حسناً في معركة أحد.

ومثال آخر في كتاب الله قوله تعالى: ﴿ يَقُولُونَ لَئِن رَّجَعْنَآ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ ٱلْأَعَزُّ مِنْهَا ٱلْأَذَلَّ . . ﴾ [المنافقون: ٨].

فقد سمح الله للمنافقين بإنفاذ مشيئتهم في إيذاء رسول الله ﷺ ، وكان من نتيجة ذلك أن أنزل بحقهم قرآناً يُتلى ويفضح طويات أنفسهم ، وبالتالي توقف أذاهم وانحسر على هذا الحد؛ لأن المسلمين نظروا لهم نظرة احتقار فلم يعد باستطاعتهم التمادي في الغيّ والإرجاف.

ـ وفي قوله تعالى عن أصحاب القرية: ﴿ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴾ [القلم: ١٧ ـ ١٨] ، لقد كان علاج أنفسهم الحريصة الشحيحة فأخرج ما انطوت عليه بإتلاف محصولهم فأعادوا حساباتهم وصححوا مساراتهم وكان إتلاف محاصيلهم سبباً لأن يقولوا: ﴿ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴾ [القلم: ٣١] ، فكان العذاب الأدنى مفيداً ليحميهم من العذاب الأكبر عذاب يوم القيامة.

ـ وإذا كانت مشيئة العبد للخير وللأعمال الصالحات ، فإنَّ مشيئة الله تعالى حالت دون تنفيذ أعمال الخير للعبد ، والأجر قد حصل إن شاء الله ، وذلك إذا اتخذت الأسباب الشرعية وحِيْلَ بين العبد وبين ما يطلبه.

ـ ففي عودة المسلمين من تبوك حيث عانى المسلمون من مشقَّة السفر في الصيف وطول الطريق والجوع والعطش ، وبينما كانت المدينة فيها الماء والغذاء والهواء العليل ، وكان بالمدينة أناس أرادوا الخروج مع رسول الله ﷺ ولكن حبسهم العذر ، فلم يفتهم الأجر ، وفي طريق العودة قال عليه السلام لمن معه: «إن بالمدينة أقواماً ما مشيتم خطوة ولا صعدتم تلة ولا تحملتم شيئاً من المشقة إلا كانوا معكم في الأجر» ، فدهش الصحابة وقالوا: وهم في المدينة (حيث الماء والظلال..)؟! قال عليه السلام: «حبسهم حابس العذر».

فالله تعالى لا يمنع الأجر لمن اتخذ الأسباب بصدق وحيل بينه وبين العمل الصالح ، قال عليه السلام: «إنما الأعمال بالنيات» ، فالنية الصالحة تستحق الأجر.

ـ وفي قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح يظهر لنا من حالات المشيئة:

١ ـ في خرق السفينة ، فمشيئة ربنا التي سمحت لمشيئة الرجل بخرق السفينة؛ لينجو أصحابها المساكين من مصادرة الملك الظالم لها ، إنها مشيئة ربنا الخيرة دوماً ولو أن ظاهر ذلك يبدو شراً ، إلا أنه شر من وجهة نظر الجاهل الذي يعلم الأمور بظواهرها.

٢ ـ في الظاهر أن مشيئة الرجل الصالح قد سمح لها ربنا أن تقتل الغلام؛ لتحمي والديه من إرهاق الولد الوحيد لوالديه ولتمنع الولد من أن يعيش فاسداً،فهي مشيئة لخير الأبوين والولد ، ولو أن الظاهر لا يبدو كذلك.

٣ ـ كيف سخَّر ربنا للأولاد من يبني لهم الجدار فوق كنزهم حتى إذا ما بلغوا أشدهم استخرجوه من تحته.

ـ لذا كان من دعاء الرسول ﷺ: «والخير كله بيديك والشر ليس إليك».

ومشيئة الإنسان (الرجل الصالح) ظهرت للعيان من خلال سماح مشيئة الله لها بالظهور وإمكانه من التنفيذ، وهكذا بينت الآية: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝٢٣ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣ ـ ٢٤]، فلا مشيئة للإنسان تنفّذ إذا لم يشأ الله لها أن تظهر، وكذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠]، فالأمر العام كله لله وليس يقع شيء في هذا الكون إلا بمشيئة الله الخيّرة فإلى الله ﴿يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ﴾ [هود: ١٢٣].

وإذا ما شاء الإنسان أمراً ولم يستطع إنفاذه أو غفل عن ذلك، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا﴾ [الكهف: ٢٤]، فاذكر أيها العبد أن الأمر إليه وأن الخير في نسيان ذلك الذي كنت تريد، وأن الله سيجعل فيما سيسمح لك في الأمر الذي سيكون بعده أفضل وأحسن (رشداً).

فإذا سمح الله لعبده بإخراج الأعمال السيئة ظاهرة للعيان فهذا لخير الإنسان؛ لأنها وسيلة لعلاجه فيمتنع بها عن التحرك نحو سيئة أكبر؛ لأنه بعد عمله السيئ سيكون أكثر استعداداً للعودة إلى الصواب خاصة إذا شعر بضغط و مهانة المجتمع له بسببها، فقد أضله عن جنوحه نحو تجاوز احترام قيم الأمة وقضاء شهواته دون ضابط، فصارت العملية عكسية ففَقَد ما تطمح به نفسه وفقد احترام المجتمع وطالته عقوبة الدولة (هذا إضلال ربنا).

فهذه السيئة عقوبة لذنب كان قبلها (ظهر على شكل معصية) فهي وإن كانت خلقاً لله تعالى فهي من رحمته بعبده؛ ليوصله إلى مرحلة يرى فيها ثمرة بُعْده عن الحق وغيِّه في طريق الضلال وكل ذنب ثمرة لما قبله، أما

الذنب الأول فهو عقوبة على عدم فعل العبد ما خلق له وفطر عليه وهو عبادة الله وحده ، فماذا يتوقع من إنسان أعد ليدرس وتشاغل عن الدراسة وتلهّى بسفاسف الأعمال فماذا تراه يحصد إلا الجهل والأخطاء ، كل ذلك إذا لم يتنبه من واحدة أو بأخرى بعدها أو بعدها فلا يمكن إلا أن يصل لمرحلة يمقت فيها الدرب الذي سار عليه ويفكر بالتوبة وإصلاح أمره ﴿ لَمَقْتُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أَنفُسَكُمْ إِذْ تُدْعَوْنَ إِلَى ٱلْإِيمَٰنِ فَتَكْفُرُونَ . . ﴾

[غافر: ١٠].

فالله تعالى فيما يسوق للعبد من أقدار لمشيئته للوصول لمرحلة أقرب ما تكون للإصلاح ، وهكذا (فلا حول ولا قوة إلا بالله) فلا يمكن أن يحوِّل هذا الإنسان من طريق الغي إلى طريق السداد إلا بمعونة الله وبسلسلة المعالجات الإلهية.

فالشيطان الذي يضع خطمه على قلب ابن آدم (سخّره الله لهذه المهام وسمح له بالوسوسة) إذا وجد قلباً خالياً من تأليه الخالق الذي فطر القلب على تأليهه وأخذ عليه العهد بذلك: إذا وجد الشيطان هذا القلب الْتَهَمَهُ فيوسوس له بالمعصية ويزين له الشهوات.

فالخُلُّو من التأليه لله ومن إخلاص العبادة له يدخل العبيد في سلسلة الذنوب التي تقع بمشيئة الله تعالى ويستمرئ العبد هذه الأعمال (المعاصي والذنوب)؛ لأنها تتفق مع شهواته إلى أن تصبح أهلاً لعقوبة تعيد العقل لمكانه ﴿ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ ﴾ [الأنعام: ٤٤] ، أو ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً ﴾ [الأنعام: ٤٤] لأنه ﴿ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ ﴾ [الأنعام: ٤٣] فالعاقل الذي يرجى منه خير يستعمل عقله فيتوب ويتأكد من سوء تصرفه وعدم جدوى هذا الطريق الذي سلكه ﴿ فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ . . ﴾ [يونس: ٩٨].

وهكذا يسخِّر ربنا المشيئة الصالحة لتكون موعظة (للآخرين) وشفاء

لصاحبها وللآخرين، فإذا استجاب الآخر جاءه الهدى والرحمة بالدنيا الموصولتين بالسعادة الأبدية.

ـ أما عند عدم الاستجابة بعد كل المعالجات فلا بد للختم: يختم الله على القلب والسمع والبصر، عندها لم يعد للدواء مجال فلا بد من تطهير الأرض من الرجس بالعوارض الطبيعية أو الحروب أو غير ذلك ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١].

وهكذا نرى حماية ربنا لمُتَّبعي السنن والذين يعملون بالعقل والاستفادة من الآيات واتباع الرسل الهداة.

ومن طرف آخر فإضلال ربنا لمن خالف الفطرة والسنن ولم يستفد من الآيات ولم يتبع الرسل وخلا قلبه من تأليه ربه ليعيد: التفكير ومحاسبة نفسه وينظر فيما وصل إليه من متاعب بسبب سوء السلوك ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥]، فإضلال ربنا يأتي بعد أن وضع في الإنسان الفطرة وأعطاه العقل وبين له بالآيات وأرسل إليه الرسل... فلما عتى كان مصيره كما قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ١].

فالله يحيي ويميت (يحيي القلوب بهدايتها، ويميتها بأن يقطع عنها الخير والهداية حتى تشعر بالوحشة فتطلب الطريق الصحيح) فلله الحمد ربّ العالمين.

﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت: ١٧].

بالاختيار ﴿فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ﴾ [فصلت: ١٧] بعد أن أعطاهم فرصة أخيرة.

﴿تَمَتَّعُوا فِي دَارِكُمْ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ﴾ مهلة أخيرة يمكن بالتوبة أن يرفع عنهم العذاب.

ـ ردّ الشبهات:

﴿وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ﴾ [الأنعام: ١٣٣]، ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ

ٱلرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤] ، ﴿ ۞ قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر: ٥٣].

فالرحمن الرحيم لا يمكن أن يتشفى من عبيد له هو خلقهم؛ ليرحمهم وأحبهم ابتداء ، فكيف يكتب على قسم منهم دخول النار دون سبب ما ، هذا لا يليق بجلاله وكماله فإذا لم يعرف الإنسان معنى الكلام فليصمت ولا يَقْفُ ما ليس له به علم ، يسير في الظن وهو أكذب الحديث ، والله يحب التائبين الذين أسرفوا على أنفسهم فكيف بمخلوق لم يظهر عمله يكتب عليه الشقاوة ليدخله النار؟.

إن علم ربنا الأزلي الكاشف هو الذي سجل في اللوح ، فهو تعالى نظر في الأنفس وما هي عاملة بمحض الاختيار والمسار الذي تتحرك به ، فالتي سيوصلها مسارها إلى الحق بالاختيار بعد إعطائها من فرص الرحمة والعناية هي التي قال: هذه إلى الجنة ولا أبالي أي: لا أبالي من مستفسر عن سبب ذلك ، إنه تعالى لا يُسأل عما يفعل لكماله ورحمته وعلمه أولاً ولسلطانه وقهره ثانياً فلا يليق بعزته إلا ذلك.

وأما من أعطيت له حرية الاختيار وأحيط بسلسلة من العنايات الإلهية وأصرَّ على اتباع الهوى والتنكر للفطرة والعقل ولم تفده المعالجة ، ولم يستفد من جميع فرص المعالجة بالرأفة للتوبة واستمر معانداً حتى الرمق الأخير فهذا ممن قال عنه ربنا: إلى النار ولا أبالي ، فعزته تأبى عليه تعالى أن يفوِّت فرصةً لعبده أو احتمال معالجةٍ أو مساعدةٍ ، فهو تعالى لا يُسأل عما يفعل؛ لأنه تعالى مستحيل أن يضع الأمور في غير محلها (فلا أهل الجنة أهلٌ للنار ولا أهل النار أهلٌ للجنة)؛ لرحمته وكماله فلا يترك فرصة إلا ويفيد عبده منها.

ويوم القيامة حين يعرض ربنا لكل عبد من عباده ما ساقه له من أسباب العودة والتوبة والمعالجات النفسية ووسائل التذكر ﴿أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُم مَّا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَن تَذَكَّرَ وَجَآءَكُمُ ٱلنَّذِيرُ . .﴾ [فاطر: ٣٧] ، وإذا تسلم كلٌّ كتابه ، وإذا الصحف نشرت وبان لكلٍّ ما قدم وأخّر ، ورأى ما عمل وما ساقه له ربنا

عندها ﴿ ۞ وَعَنَتِ ٱلْوُجُوهُ لِلْحَيِّ ٱلْقَيُّومِ ۖ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا ﴾ [طه: ١١٦] حمل بنفسه أنه مظلوم وأن الله تعالى لم يستنقذ له الفرص للعودة والتوبة فظلمه، وعندها يقول الخلق جميعاً: الحمد لله، فأهل الجنة رأوا فضل الله ورحمته بهم، وأهل النار وجدوا ما أسدى إليهم ربهم من النعم وما أتاح لهم من الفرص، وما ساق لهم من المنبهات والمذكرات والشدائد التي كانت كلها لإعادتهم إلى الصراط المستقيم، وعندها ﴿ وَقِيلَ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ . ﴾ [الزمر: ٧٥] قيل من الجميع، أما الناس الذين يريدون أن يأطِرَهم الله على الإيمان أطْرَاً فهذا ليس من كمال الله تعالى ولا من تكريم الله لهم.

إن علم الله الكاشف لعمل الإنسان لم يجعله الله سبباً للجزاء ولكن استأثر به في علم الغيب عنده، وحاسب الإنسان على ما اقترفه وهو حر في اختياره، بعد أن قدم له من وسائل العناية والهداية ما لو استفاد منه لكان في المقعد الذي أعد له.

فلله الحمد في الأولى (علمه)، وفي الآخرة (عنايته وعلاجه وهدايته وحسابه).

ـ الإجبار:

الجبرُ ما يُفعل دون إرادة المجبور مع كراهيته (يفعله المجبور وهو مكره) والذي يجبر لا يسمح أن يجعل عبده مختاراً.

أما الجَبْلُ: فهو من الأفعال الاختيارية القائمة بالعبد بعد أن يسوق له ربه ما يجعله يختار من مكارم الأخلاق فتصبح له جِبِلَّةً.

فمحبة الله لعباده تأبى عليه أن يجبرهم على الطاعة وإلا لما كانوا أهلاً لأن تسجد لهم الملائكة.

والقرآن يثبت للعبد حرية الاختيار ﴿ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴾ [الإنسان: ٣] ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ ﴾ [الكهف: ٢٩]، ﴿ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ ﴿٥٥﴾ ﴾ [المدثر: ٥٥].

وفي الحديث القدسي: «إنما هي أعمالكم أحصيها لكم فمن وجد خيراً

فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه» ، وقال: «أعمالكم»؛ لأنها مشيئتهم لهم ولو أنها خلق لله تعالى.

وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه: ليس جبراً ولا قسراً ، لو كان ذلك لبطل الأمر والنهي والوعد والوعيد ، ولبطل الثواب والعقاب.

ـ عداوة الشيطان:

﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ﴾ [فاطر: ٦]. بدأ والدَيْنا بالعداوة وأعلن بالأيمان الكاذبة أنه ناصح لهما ، فلما عرف ما يطلبان من الخلود جرَّأهما على الأكل من الشجرة التي مُنعا من أكل ثمارها ليكونا من الخالدين حسب دعواه.

فهو يُشام النفس ويأتي للإنسان مما يرى أنه يريده ﴿ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ﴾ [الأعراف: ٢٧] ، فهو يضع خطمه على قلب ابن آدم فإن رأى منه الإقدام وعلوّ الهمة زيَّن له التشدد في الدين ، وإذا رأى منه الإحجام أخذ في تثبيط الهمة وهوّن عليه ترك الأمر الإلهي والتقصير فيه ، وهكذا لعب بالبعيدين عن السُّنَّة وزيَّن لهم سوء أعمالهم.

فقوم ألَّهُوا آل البيت ، وآخرون قاتلوهم واستحلُّوا حرماتهم. قوم أذلوا أنفسهم للخلق بدلاً أن يذلوها للخالق.

وقوم زيَّن لهم الرياضات والمجاهدات وسيلة للوصول للمعرفة بدلاً من الالتزام بطريق الأنبياء والسنة ، أو أخذوا بالهاجس دون الكتاب والسنة (حدثه قلبه عن ربه)!.

وقوم اتخذوا طرقاً ولباساً وحركات وهيئات وشيوخ طرق واغتروا بها ، وتركوا ما عليه رسول الله ﷺ والسلف الذين لم يكونوا يوطنون أنفسهم لمكان ما ، كما يوطن البعير نفسه.

وقوم لعب بهم الوسواس في الطهارة وقد أمر الشرع بالبناء على اليقين وعدم المغالاة.

وقوم أخذوا بالتأويل الباطل ، وبالتأويل الباطل قتل الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه ، وآخرون اعتبروا التأويل الباطني ورفضوا الظاهر ، يستخدمون ألفاظ الكتاب والسنة ويقصدون معنى آخر فيحصل الاشتباه والإجمال للفظ.

ومن دعاء الرسول عليه السلام: «اللهم إني أعوذ بك من مُضِلاَّت الفتَن» (ليس من الفتن لأن الناس كلهم سيفتنون) ، وهكذا يفتن البعض بالبعض: الفقراء بالأغنياء ، والمؤمنون بالكفار.. إلخ. وكل من عمل برأيه لا بد أن ينحرف ، والأمراض أساسها اتباع الهوى والتعصب والجهل.

ـ فالهوى: ميل النفس إلى الشهوة (كل ما تحبه وترضاه) ، وعليه فالهوى إما لنيل شهوة أو اتباع شبهة ، وتتولد الشبهة من ميل نفسي لها ويندفع العقل لإقرارها وتقديم الدليل تلو الدليل عليها (التبرير) ، وتأويل ما يخالفها وإيراد ما يعاكسها من الأدلة. وهكذا فالمبتدع يتعلق بشبهة يربطها بدليل ينسبه للشرع.

ويختلط الأمر بين اتباع الهوى والخطأ والاجتهاد (مع أن الهوى والخطأ معصية) ، ومنشأ الهوى في النفس دافع خفي يسبق الدليل ويدافع العقل ليجد دليلاً يؤيده ، فهو لا يستند عليه إلا بدليل خارجي إذ يعرض على الغير فإن أصر وراوغ وتأول فهو متبع الهوى ، والهوى لا ينتج إلا بدعة لا يرجع عنها صاحبها إلا إلى بدعة أكبر نتيجة الكبر والرياسة ، لذا صحّ عن الإمام محمد بن إدريس الشافعي: (إذا صحّ الحديث فهو مذهبي) وصاحب البدعة لا يرجى له توبة.

أما المجتهد المخطئ فإنه مأجور يثاب على اجتهاده؛ لأنه يتحرى الحق والدليل والنصوص ، والضابط له: اتباع الكتاب والسنة واتباع منهج السلف في النظر والاستدلال ، واعتبار المتغيرات الواقعية والتقى والإخلاص.

ـ أما التعصب: حالة فيها ضعف وجهل يبتلى بها الإنسان فتعمى بصيرته. ويكون التعصب إما لشخص أو لرأي أو لفكرة غير صحيحة.

ـ والجهل: يكون لنقص العلم أو عدمه فهو يريد أن يضع نفسه في طبقة ليس أهلاً لها وتعدى غيرها.

وهكذا تكون البدعة، بين: أ ـ حق. ب ـ باطل.

فلو كانت باطلاً محضاً؛ لظهرت وبانت وما قبلت،ولو كانت حقاً محضاً لا شَوْبَ فيه؛ لكانت موافقة للسنة لأن السنة لا تناقض حقاً لا باطل فيه ﴿ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٤٢].

واللبس هو خلط الشيء بشيء ﴿وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ [الأنعام: ٩]، والتلبيس: الخلط والغش، فإذا أُلبس الحق بالباطل يكون قد أظهر الباطل بصورة الحق.

ـ والفتنة: تعود إما إلى شهوة مستحكمة وإما إلى شبهة، وتكون الشبهات من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا ينجو منها إلا أتباع الرسل وهي فتنة المنافقين وأهل البدع وهذه تدفع باليقين، جاء في الأثر: «دع ما يريبك إلى ما لا يريبك». أما فتنة الشهوات فتدفع بالصبر الذي هو نصف الإيمان.

ـ كما أن الغلو في المخلوق وإعطاءه فوق منزلته في الربوبية (والألوهية) هو من اتباع الهوى الذي ينقص من العبودية لله ويجعل للمخلوق حظاً ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]. وتدخل في هذه عبادة الأصنام المادية والمعنوية وعبادة الأشخاص (الشيوخ).

ـ والمحبوبات لغير الله أعطاها الشارع صفة التعبد لقول الرسول عليه السلام: «تعس عبد الدرهم تعس عبد الفرج تعس عبد الخميصة».

ـ وترى كثيراً من أصحاب العشق الشيطاني عبداً لذلك المعشوق متيّماً به ﴿ أَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ . . ﴾ [الفرقان: ٤٣]، وجميع الفواحش أصلها محبة غير الله (الخمر والزنا. . إلخ) وأولياء الشيطان يستحلون الفواحش؛ لما يصلون فيه من الميل إليها أو هوايتها أو عشقها.

* * *